الأيديولوجيا والتربية

دكتور عبد السميع سيد أحمد *

الأيديولوجية كلمة منفرة ، مخيفة · لأنها تعنى فى اذهان البعض التشنج والتعصب وترديد النصوص المحفوظة، وتنطوى على شغب يهدد الاستقرار الاجتماعى · وهى كلمة محببة ، اثيرة لأنها تعنى فى اذهان البعض الاخر وضوح الموقف من العالم ، والقدرة على تغييره الى عالم أفضل · وقد أعلن بعض مفكرى الغرب موت الايديولوجية لكنها لم تمت · وانما على العكس ، ازدادت ازدهارا ، خاصة فى العالم الثالث · اتته فلول ايديولوجيات الغرب، أو خرجت ايديولوجياته الخاصة من مكمنها · وصارت بمثابة كلمة السر الى التغيير ·

وهذه الدراسة محاولة للاقتراب من الايديولوجية كما يظهر وجهها القبيح ، وجهها المقبول · ليس للدعاية ضد الايديولوجية ، أو للترويج لها بصفة مطلقة ، وانما محاولة لتأكيد الايديولوجية الواضحة لمجتمعنا ، ثم لفكرنا العلمى عامة والتربوى على وجه التخصيص · وهى محاولة للربط بين العام والخاص ، اذ تبعث الى كتابة تلك السطور ما نلقاه فى هذه اللحظة التاريخية من تمزق وشعور بالعجز ازاء الاحداث فى عالم سلمنا بأننا لا نملك شيئا من مقدراته · ويثير هذا الشعور العام ، الشعور الخاص بعجزنا عن أن نكون أصحاب فكر متميز فى مجال التربية ، وتشتت جهودنا البحثية فى أشكالا هلامية فى صورتها العامة ، بلا موقف ، وبلا أولويات · وفى مجال تقرير الحقائق لا جدوى من التجمل ومماألأة الذات ·

وربما كانت اثارة السؤال عن ايديولوجيتنا التربوية أكثر قيمة من محاولة الاجابة ، لأن تعميق المشكلة اجدى من تقديم اجابات مبتسرة ، ولأن السؤال اذا أعقبه مزيد من الأسئلة حدث « التكثيف الشعورى » المطلوب لكى نفعل شيئا ، حتى لا نصبح نحن الجزء الاكبر من المشكلة ·

(*) مدرس أصول التربية بكلية التربية بجامعة عين شمس ·

وتبدأ الدراسة بعرض الدعاوى المضادة للفكر الايديولوجى عامة ، ثم نقدم الايديولوجية بنظرة جديدة ، نخلص منها الى رؤية للصورة الايديولوجية العامة لمعرفتنا التربوية فى مصر ، ثم ننتهى بعرض عينة من القضايا العلمية الايديولوجية التى تستحق عناء التفكير ٠

وفى تعريف الايديولوجية نأخذ من التعريفات أبسطها ، وهو أنها « نسق من الافكار يشكل نظرة عامة للحياة ، على مستوى المجتمعات والجماعات والأفراد » ٠ ثم نترك المفهوم ينمو مع اضطراد السير فى الدراسة ٠

الايديولوجية : نظرة معادية :

اكتسبت الايديولوجية معنى دونيا مازالت تعانى منه الى الآن ، ويشكل جانبا هاما فى الهجوم عليها ٠ وكانت البداية منذ أطلق وصف الايديولوجية على جماعة من الفلاسفة كانت تعارض طموحات نابليون الامبريالية ، على اعتبار أنهم حالمون غير علميين ٠ فصارت الايديولوجية صفة لكل فكر يفترض أنه فكر عقيم حين يوضع فى محك التطبيق والممارسة فى الساحة السياسية خاصة ٠ أو يهتم بأنه فكر يتأمل الواقع تأملا مثاليا بوعى زائف ، حتى وان كان فكرا يتعلق بالمعرفة يتوالد ويتكاثر من خلال تقليد أكاديمى مكتف بنفسه٠ أى ان كل الفلسفات وكل الانساق الفكرية ايديولوجيات ان كانت لا ترتبط بالفكر الحقيقى السائد فى المجتمع ، وتتعالى على الواقع المعاش ، وليس لها من ثمر فى الحياة العامة ٠ وربما كانت هناكصلة بين نظرية بيكون عن الوهم idola والايديولوجية ٠ الاوهام عند بيكون « أشباح » أو « معتقدات سابقة » هى مصادر لخطأ الفكر ٠ وتتمثل تلك المصادر فى الطبيعة الانسانية ككل (اوهام القبيلة) ، أو فى الفرد ذاته كفرد (اوهام الكهف) ، أو فى اللغة التى نستعملها (أوهام السوق) ، أو فى الاشخاص الذين نتأثر بهم ونعتنق آرائهم (أوهام المسرح) ٠

والايديولوجى على هذا النحو شخص لم يستطع ان يقاوم الاخطاء التى تقوده اليها طبيعته كانسان ، فهو يؤمن بالخرافة بدلا من التفكير العلمى ، وهو لم يتفهم نفسه تفهما واعيا ليعرف ماذا يريد ويقصد اليه مباشرة بدلا من تحويل طاقته الى مثاليات زائفة ، تتكون من كلمات لم يعمل فيها فكره

بالتحليل المنطقى ليتبين له خواؤها وبعدها عن الواقع · وانقاد لاشخاص ذوى جاذبية شخصية أو فكرية واحاطهم بهالات من العظمة والتقديس ، حيث تصور أنهم يعبرون له عن وجوده أكثر مما يستطيع هـــو · ومن ثم فان الايديولوجية ما هى الا حد وسط : بين كذبة بسيطة ، وبين خطأ غير متعمد ناجم عن غفلة · هى تكوين مفاهيمى مشوه وخداع غير متعمد لأن له مسببات غير واعية · حين ننظر الى خصم لنا فنرى سلوكه يفتقد الصدق ، ونفهم أفكاره على أنها مجرد وظيفة لوضعه الاجتماعى ، فاننا فى هـــذه الحـــالة نطلق عليه وصف نابليون : أنه ايديولوجى (١) · وعلى هذا النحو تهاجم الايديولوجيا فى جوانبها المختلفة · فلننظر نموذجا لهذا الهجوم ·

الايديولوجية أسطورة :

لكل ايديولوجية أسطورة تقع فى مكان القلب منها وتتفرع عنها بقيـة الأفكار · فهناك قصة متكررة فى كل الايديولوجيات ، قصـــة الابن الذى يفضله أبوه على اخوته ويعطيه بركته نتيجة لتميزه الخاص ، لا نتيجة خلل نفسىفى شخصية أبيه يؤدى به الى التفرقة فى معاملة ابنائه · وتستثير لدينا تلك القصة ما نكبت فى اللاوعى من تحرقاتنا وقلقنا لنكون الاطفال المفضلين عند الأب ، أو الرئيس ، أو الزعيم · وهى نفس قصـــة « سندريللا » التى نبذتها زوجة أبيها ، فاحتضنتها احدى الحوريات كابنة لها ، وفازت على كل اترابها ، ثم يعجب بها الأمير ويحبها لأنها تستحق الحب أكثر من غيرها · تلك القصة التى تجسد احزان الاطفال وآلامهم هى نفسها أسطورة الاحزاب ، كل حزب يطمح أن يكون الطفل المحبوب لدى الجماهير · وهى نفسها وهم المثقفين ، يريدون أن يكونوا الفئة المدللة بين فئات الناس ، فيهدأ شجارهم مع التاريخ الذى عبر عنه افلاطون خير تعبير حين طالب بالحاكم الفيلسوف ، وبالامتياز الاجتماعى للاكثر ذكاء وعلما على كل الطبقات (٢) · ومن خلال الفكر الاسطورى ترى كل ايدلوجية لنفسها مهمة تاريخية مقدسة · الماركسية تحمل الرسالة التاريخية « للكراهية » ، لأن العنف طاقة تتولد عن الكراهية لتغيير المجتمع عن طريق الثورة · والابن المفضل لحمل تلك الرسالة هو طبقة « البروليتاريا » · والنازية تحمل رسالة تحقيق الدولة العالميـــة لأن القوة الكونية الاعظم تتطلب النظام ، ومن خلال عملية التطور التاريخى تتجسـد الحقيقة العظمى فى الدولة العالمية ، والافراد ما هم الا أدوات فى يد التاريخ

ليس عليها الا أن تطيع وتسير فى الطريق المحتوم المحدد لها سلفا ، حتى يتحقق النظام وتظهر الدولة العالميـــة · والجنس « النوردى » هو الجنس المختار لتحقيق تلك الرسالة · تتحول الطبقة ، أو تتحول الأمة الى « جماهير» مشخصة تقع فى قبضة قوية مجردة ، وتسير نحو أهداف نهائية مجيدة (٣)·

الايديلوجيا تزييف للمعرفة :

وتحاول الايدلوجية أن تغلف أسطورتها برداء الفلسفة والعلم · لذلك يمكن تعريف الايديولوجية بأنها توليفة من المعارف غير المتخصصـة تحاول عن طريقها أن تثبت أنها مستنبطة من الوجود الانسانى ومتسقة معه · وبهذا الرداء المعرفى تظهر وكأنها أقرب الى حقيقة الدراما الانســانية ، فتصبح الايدلوجية الاجتماعية وكأنها ايدلوجية كونية مطلقـــة · لقد ظهرت أفكار هيجل ، وماركس ، وكومت ، وسبنسر على أساس ان كلا منهم قد توصـل الى حل، الشفرة الخاصة بقانون التقدم ، التى يمكن استنباط طبيعة المجتمع والمستقبل منها · مع أن كلا منهم مختلف عن الآخـــر اختـلافا بينا (٤) · واستعمل كل منهم التاريخ كما يريد ، لأن كلا منهم راح يعكس أضواء تفكيره الى الخلف ليكتشف ماضيا جديدا ، فكانت الحصيلة فى النهـاية كثيرا من « المواضى » وكثيرا من « المستقبلات » بحيث يتطلب كل مستقبل جديد ماضيا جديدا ، كان الواحد فيهم يتوهم أنه يقرأ التاريخ من بدايته ، بينما كان فى حقيقة الأمر يقرأه من نهايته · والقراءة الكلية للتاريخ دعامة أساســية فى بنية الايديولوجيا ، يساندها ما يتاح من كشوف علمية وأفكار جديدة · كانت كشوف نيوتن وداروين واينشتين وهيزنبرج معـــارف تســـلقت عليهـــا الايديولوجيات من كل اتجاه ، بينما الكشوف العلمية واحدة · الايديولوجية تطوع المعرفة لما تريد بينما تبد وكأنها نتاج منطقى للمعرفة · أن الايديولوجية تغطى نفسها بالعلم لتبرير المصالح · ليست المصالح الاقتصادية فقط ، ولكنها قد تكون مصالح جماعات ذات أوضاع اجتماعية معينة ، مثـــل مصالح الاقليات التى تسعى الى الصعود الاجتماعى والتمايز ، أو مصالح جماعات القوة ، أو مصالح العمال أو المثقفين ، أو مصالح جماعات منغلقة تعـادى الآخرين · الايديولوجية فى مفهومها الكلى مجموعة من المعتقدات مطعمـــة بالعواطف تبغى التحول الى أسلوب شامل للحياة ، أو رؤية شاملة للواقع ، أو التزام بقضية ، أو ارضاء لمشاعر شخصية عميقة · ومن ثم فهى تخدم

ـ كنظام عقائدى ـ شتى الاتجاهات ، وتعطى الشرعية لمعتنقيها فى التخريب أو البناء ، والمحافظة أو التغيير ٠

ومن طبيعة الايديولوجية افتقادها التسامح مع وجهات النظر المخالفة ، لأنها أن لم تدع امتلاك الحقيقة وحدها تفككت كنسق فكرى ، ولانها تكونت أصلا مهاجمة للمواقف الفكرية المغايرة ، وتستمد وجودها الخاص من ذلك الهجوم ٠ ومن حيث هى نسق متكامل ، فانها تستبعد أى ادراك للواقع غير ادراكها الخاص ، لأنها تختزل الواقع وتجرده ليتحول الى مذهب يمكن أن يشرح كل شىء عن طريق الاستنباط من مسلمة واحدة أساسية ٠ فاذا تهاونت الايديولوجية فى الدفاع عن تلك المسلمة ، أنهار البناء كله بكل تفاصيله ، ولهذا يكون التعصب ، (٥) بينما تبدو وكأنها نتاج منطقى للمعرفة ٠

الايديولوجية اسقاط نفسى من جانب الايديولوجى :

تحاول الايديولوجية « أنسنة » العالم ، على عكس العلم نفسه الذى يحاول خلع تلك « الانسنة » من منهجه ٠ قضى العلم ردحا طويلا من الزمان ليقضى على مفهوم مثل « الغرضية » فى سلوك الطبيعة ، أو على مفهـــوم « الاحياء » بالنسبة للاشياء ٠ وتعود الايديولوجية وفى ركابها مثـــل تلك المفاهيم : فالكون يمكن أن يصبح السيرة الذاتية للعقـــل المطلق ٠ وتطور الطبيعة ٠ والتاريخ يسير بالحتمية الاقتصادية لتتبؤ الطبقـة العمالية مكان السيادة ، ثم ليأخذ كل بقدر حاجته ٠ ولا يختلف هـــذا الوضع عنه فى الايديولوجيات البسيطة ٠ اذ يصور الاحباش آلهتهم ســـود البشرة فطس الأنوف ٠ ويصور التراقيون آلهتهم زرق العيون حمر الشعور (٦) ٠

أن الايديولوجى يرمى فى الحقيقة الى صياغة العالم على هواه ، مشكلا بسماته السياسية أو العنصرية أو القومية ٠ فالشيوعى يسقط من لدنه فكرة الكون الذى يتطور عن طريق الثورات من خلال قفزات نوعية فى لحظات تاريخية حاسمة ، أو تراكمات كمية تتحول الى تغيرات كيفية ٠ ويحاول أن يرى فى القوانين الطبيعية ما يراه فى الاحداث الاجتماعية ٠ والفاشى يرى الهرمية والتسلطية فى الناموس الكونى الصارم ، حيث تتسيد الشمس حركة الكواكب فى تسلطية كونية ٠ والفوضى يتعلق بفكرة « النسبية » فى الكون كله ، ولا

يرى فيه الا ركاما من الفوضى التى يتوهم الآخـرون أنها قمة النظـــام • والليبرالية تعكس الفكرة النيوتونية عن الكون ، فالمجتمع يتحرك حركة ذاتية وهو خالد فى حركته مثل ماكينة لا تتوقف وتولد طاقتها داخليا ، وتحفظ النظام الضرورى لاســـتمرارها وبقائها ، تماما كما يحـــدث بين الكواكب والنجوم • أما القوة المحركة للمجتمع والتى تقوم باصلاحه اصلاحا ذاتيا ، فهى متأصلة بطبيعتها فى العقل المستقل للفرد ، وفى تحرر ارادته الذاتية ، لأن المجتمع فى النهاية مجموع أفراد • وحركة المجتمع تعنى التوازن والتناغم فى العلاقات المكونة لاجزائه كما هو الحال فى الطبيعة •

يتصور الايديولوجى النظام السياسى كظاهرة مصغرة للكون ، والنظام الكونى كظاهرة مكبرة للسياسة (٧) •

الايديولوجية فكر نفعى :

النفعية مبدأ ايديولوجى يغلف كل المبادىء التى تنادى بها • فالفكرة الفلسفية الواحدة يمكن أن تستخدمها كل الايديولوجيات ، حيث تتحرك الفكرة فى مسار تاريخها الايديولوجى من أقصى اليمين الىأقصى اليسار ، وبالعكس• ويثبت الايديولوجيون أن تلك الفكرة لها قدرات متعـــــددة حسب استعمالها الايديولوجى : كانت فكرة بنتام التى تقول بأن الغرض من أفعال الناس يجب أن يكون السعادة القصوى لاكبر عدد منهم ضالة لكل الاجنحة الايديولوجية• أقام الاشتراكيون مطالبهم على أساس دعوتهم للسعادة القصوى للمجتمع • وتحول جون ستيورات مل من الرأسمالية الى الاشتراكية لأنه شعر أن نظام الملكية الخاصة قد اخفق فى تقديم السعادة لأكبر عدد من البشر • واحتضنت الطبقة الوسطى الفكرة نفسها لتعبر عن مصالح الرأسمالية المالكة ، بشرط أن تكون الملكية من خلال المنافسة الحرة • وكان انجلز يعتبر نفسه يساريا من اتباع بنتام ، لأنه يرى بنتام أكبر الفلاسفة العمليين ، ويرى أفكاره ملكا خاصا للبروليتاريا • وحين ظهرت البرجماتية كفكر ثائر ضد كل اليقينيات والثوابت، داعية الى الايمان بالتغير ، واعتبار النواتج العملية محطا للافكار ، لقيت أفكارها انتصارا واســـعا فى كل الاتجاهات • كانت ضالة الفاشستية فى ايطاليا ، حيث تأثر بها الشباب فى دعوتهم الى الحركة والفعل ، لأن العارف ليس مجرد ملاحظ ، لكنه فاعل • ووجد فيها موسولينى النموذج والشعار

المناسب للفاشية ، فهى ساندە فى احتقـــاره « للبرلمانيين اللفظيين » الذين يقفون ضد فلسفة الفعل المستمر · ودعا روزفلت الى الشـــجاعة فى فهـم ماركس ، لأنه جعل أدائية ديوى عقيدة للمادية الديالكتيكية · وزار ديوى نفسه الاتحاد السوفيتى ورأى جوهر الثورة هناك تحرير الشجاعة والطاقة والثقة بالحياة ، وتحرير الناس لكى يعوا أنفسهم كقوة حاسمة فى تشكيل مصائرهم (٨) · كل الافـــكار مطروحة على الســـــاحة ، وما على صانع الايديولوجية الا أن يختار منها ما ينفع ليثبت ما يراه ·

•

الايديولوجية بلاغة لفظية :

تعتمد الايديولوجية فى لغتها على الكلمات الاخاذة التى تستثير الحماس وتدفع الى الحركة · وان ارادت أن تكتسب ثوبا معرفيا فهى تستعمل المفاهيم فى تسيب ولا تتحرى الدقة ، لأن الدقة قد تكون ضد دعوتها · نحن نواجه بعبارات مثل « لن يخسر العمال سوى اغلالهم » و « حرية رغيف الخبز ضمان لحرية الانتخاب » و « الجماهير العريضـــــة » و « البروليتاريا الكادحة » و « البورجوازية العفنة » و « النضـــال الثورى » و « اليمين الرجعى » ، والقائمة طويلة بالمسكوكات التى تجعلنا ندرك بســـهولة ان محـدثنا تحدث ايديولوجية ، ويفكر بالايديولوجية ، لأنه يستعمل شعارات فضفاضة لا تقوى على مواجهة التحليل المنطقى أو اللغوى ، حيث هى فى للحقيقـــــة تخاطب الوجدان أكثر مما تخاطب العقل · بل ان هيجل نفسه الذى كان مصدر الهام الايديولوجيات على تنوعها وتباينها ، يستخدم لغة بعيدة عن الدقة لا يمكن قبولها الا بالكثير من التجاوز والتساهل · فهو لا يلتزم معنى واحدا للفظ الواحد ، وتفتقر جمله الميتافيزيقية الى المعنى وتخلو من الاتساق · مصطلح « التناقض » مثلا الذى يمثل مفهوما رئيسيا فى فلسفته ، لا يعبر فى واقع الأمر عن أى تناقض ، فهو قد يكون تضادا أو اختلافا بينا أو تعارضا ، لكنه ليس تناقضا بالمعنى الدقيق ، أى بمعنى أن يجمع الشىء الواحد ، فى الوقت الواحد ، ومن الوجهة الواحدة ، بين الصفة ونقيضها معا · ولم يعط ماركس تعريفا دقيقا للطبقة ، وتركها للنظرين من بعده حتى الآن يجهدون أنفسهم فى تحليلها · ليست الايديولوجية بحثا موضوعيا للعالم ، وانما هى تبسيط مخيف للعالم · تشخص المشكلة ، وتضع العلاج ، وتقدم الحـــــلول الجاهزة لكل المشكلات · من بدء وجود الانسان على الأرض ، الى متاعب حياته اليومية

على مستوى حياته الخاصة والعامة · ولأن الايديولوجية فى خصومة مع العالم - كما هو قائم بالفعل - فهى تعبىء عباراتها بالانفعالات الساخنة ، وبالعداء نحو الاخرين ، ليس كل الآخرين ، وانما من لا يقفون فى الصف · اما أن تهاجم الشيوعية الرأسمالية ، واما أن تهاجم الرأسمالية الشيوعية · وبين الايديولوجيات الكبرى تقف الايديولوجات الصغرى تؤدى دورها وتهاجم الجميع ·

الأيديولوجية هى لغة التبرير والدفاع والبلاغة اللفظية لأنها تريد أن يفكر الناس بالكلمات حيث يجب أن يفكروا بالأرقام ، وان يفكروا بالألفاظ حيث يجب أن يفكروا بالمفاهيم · وحين تنتكس الثورات تظهر من جديد ايديولوجيات الماضى ، ولا يتغير شىء الا أن تفسح البلاغة المستحدثة مكانا للبلاغة القديمة، ويستمر الصراع هجوما ودفاعا بين أنواع البلاغة ، بلانتائج عملية حاسمة حين تقع المجتمعت فى فخ الايديولوجية ، وحيث يتم تخصيب الأفكر بعقائد حماسية متوهجة ، فتتحول الأفكار الى أسلحة خطرة تؤدى الى أعمال العنف، وتضيع معالم الطريق فى الفوضى الفكرية الناشئة عن الصراع (٩) ·

الأيديولوجية تعبير عن اللاعقلانية :

تقدم الايديولوجية نفسها وكأنها اعادة تنظيم للعالم على أساس عقلانى، لكنها تقوم صراحة أو ضمنيا على مفهوم للانسان من حيث هو كائن لاعقلانى· كان « هتلر » يفاخر بأنه يستطيع أن يطعم شعبه كل ما يشتهى ، ولكنه لا يفعل، لأن شعبه يريد ما هو أعز من الطعام، يريد الشعور بالأمن والانتماء ، وتحقيق حلم « ألمانيا فوق الجميع » · وكان موسولينى يؤكد أن قيادته أكثر ديمقراطية من أية ديمقراطية أخرى فى الغرب ، لأنه يعبر عن الناس فى أدق حاجاتهم، وهى ليست الحاجة الى الطعام والملبس والمأوى ، لكنها حاجة القطيع الى التجمع والشعور بالقوة · وكان منظر الفاشية الكبير (فالفيريد وباريتو) يرى الانسان المعاصر مغتربا ، يزداد شعوره بالحاجة الى اليقين حدة ، فتزداد حاجته الى الغيبيات والخرافة ليتكامل مع بنى جنسه · والغيبيات والخرافة تقوم مقام الحرية ، لا فرق بينها وبين الفكر المنطقى ، ولا فرق بين ايديولوجية وأخرى منافسة ، الا اشباع حاجات الجماهير الى الطمأنينة ، لأن طبيعة الانسان فى الأساس تحكمها حتميات لا عقلانية · وفى متخلفات اللاعقل يوجد

الاستمرار ، لأن تلك المتخلفات ثابتة نسبيا ، وهى محدد أساسى لسلوك الانسان مستمرة معه منذ كان يعيش فى الغابة (١٠) · تساعد الايديولوجيا على أن يشعر الفرد بأنه جزء من كيان أكبر من وجـــــوده الخاص ، والثـــوريون الأيديولوجيون لا يحتاجون الى تنوير العقل ، ولكنهم بالحرى فى حاجة الى المعجزة ، والسلطة « الكاريزماتية » ، والغيبيات · والجماهير وحش بلا رأس، ولا يمكن توحيدها وقيادتها الا عن طريق عواطفها ، ومن يظن أن الجماهير يمكن أن تتوحد وتقاد بطريقة أخرى غير العواطف ، ليس أكثر عقلانية من رجل يضع الماء بدل الوقود ليسير قاطرة · ان الايديولوجيات تتغير وتختلف، لكن يبقى دائما أنها تخاطب الغرائز ، ويتسلق العقل ليبرر اللاعقل ·

الأيديولوجية تختار الايديولوجى :

يظن من يعتنق الايديولوجيا أنه يختار اختيارا حرا واعيا نظرته الى العالم ، بينما الذى يحدث هو أن الايديولوجية تختار من يعتنقها · هى جاهزة على اختلافها لفئات معينة من الناس ، كان ينضوى تحت ايديولوجية حسب احباطاته ، ومشاعر المرارة التى أصيب بها ، والكبت الذى لم يجد له متنفسا ثم الاحلام التى ينبغى أن يحققها · يريد الايديولوجى الثورى تغيير العالم لأنه لم يستطع تغيير حياته هو ، وشعوره بالعجز ـ الذى يعنى افتقاد القدرة على السيطرة على الأحداث ـ يدفعه الى مزيد من محاولة السيطرة على مقدراته ، بالالتجاء الى المثاليات والتخلى الظاهرى عن رغباته ، ربما الى حين · أو بمحاولة تدمير طبقة لم ينجح فى الصـــــعود اليها ، أو تعويض حرماناته العاطفية بالتطهر وتكريس النفس لاهداف مجاوزة للواقع · وفى عالم اللايقين الذى يتغير فيه كل شىء ، يلجأ الانسان الى كهف المطلقات ، فتصير فكرة التقدم حتمية تاريخية ، أو تصير الشيوعية ثورة عالمية لابد من وقوعها بحكم القوانين التاريخية ، أو يصبح العبث أساسا للوجود · وتقابل الفكرة المتعصبة فكرة متعصبة مضادة ، وفى حمى الدفاع عن الفكرة تزداد التحصينات الفكرية التبريرية · وفى الايديولوجية يأخذ المثقف المنظر مكانة القس ويعلم الناس اللغة المشتركة التى يتفاهمون بها ، ويستحثهم على أن يتصرفوا بالطريقة التى يريدها · ومن يتبعه ويقع لآرائه ، فانما يفعل ذلك لأن الأيديولوجية تساعده على أن يرى فى عالمه ما يعتقد ، لا أن يعتقد ما يراه وأن يؤكد عقائده فى مسار الحياة ، أكثر من أن يزداد معرفة بالخبرة التى

يحياها (١١) · ان الاخلاص الذى يعتنق به الناس الرؤى المختلفة للمسائل الاجتماعية والسياسية ، جزء من كل (جشتالت) تشترك فيه بعمق بناهم الشخصية على نحو أو آخر · فالطفل أب الرجل ، وتاريخ حياة الفرد يقدم تفسيرا لبنيته الشخصية الحالية ، وللاساليب التى حولت بها الصراعات والاحباطات الانفعالية · ولا يمكن أن يعتنق أى فرد ايديولوجيا مثل النازية الا ان كانت لديه أعراض سادية ونرجسية وتمركز حول الذات واكتئاب وقلق، نتيجة لسيطرة الأبوية فى الطفولة ، وعقدة أوديب والتناقض الوجدانى نحو الأب (*) · هاهنا تختاره النازية لأنه ملائم لها ، كما تختار كل أيديولوجية معتنقيها لأنهم بخصائصهم النفسية مؤهلين لها ·

ان الأيديولوجية بمثابة قناة تنسال من خلالها العواطف وتستنزف عن طريقها طاقات الانفعال لتتشتت فى عالم السياسة برموزه المختلفة ، من الزعيم الى الدولة القومية ، الى الجماعة المهاجرة التى تكفر المجتمع ، الى الفن الجماهيرى ، الى العلم الموجه بالديالكتيك (*) · وعلى هذا النحو غدت الايديولوجيا دينا « علمانيا » · هى ليست مجرد مجموعة من الأفكار يقتنع بها شخص ما يمكن أن يتنازل عنها كلها أو بعضها عن طريق الاقناع فى حوار مع رأى آخر ، أو موقف سياسى يمكن أن يتخلى عنه ان استبانت له جوانب كان يجهلها ، وانما الايديولوجية أفكار تقوم أساسا على معتقدات وعواطف غائرة فى نفس الانسان · ومع الانهيار الدينى الذى حدث فى الغرب ، فتح المجال واسعا أمام الايديولوجيا · كان الخوف من الموت سببا فى زيادة تيار اللاعقلانية والتعصب والعنف والقسوة · ولم تعد عواطف الناس تجد متنفسا لها فى الرموز والطقوس الدينية ، مع اعتقادهم بأن لا حياة لديهم الا هذه الحياة · لهذا نشأ البحث عن البديل من خلال تأكيد الذات ، أو السيطرة على الآخرين ، أو الشعور بالتفرد · كان على الفرد أن يتحدى الموت بالتمسك بقوة قهارة أكبر من وجوده الشخصى ، مثل الانتصار الحتمى للشيوعية ، أو سيادة العنصر الجرمانى ، وكان عليه أن يحسن حياته التى لا يملك غيرها بعد أن فقد الأمل فى اخراه ، فنشأت عشرات الايديولوجيات الكبرى منها والصغرى (١٢) ·

تلك هى النظرة المعادية للايديولوجيا · وهى ان اصابت فى بعض تفصيلاتها الا أنها ليست صائبة فى كليتها · والسبب بسيط ، وهو أن الهجوم

على الفكر الايديولوجى لن يكون الا من موقف ايديولوجى يحاول أن ينـزع سلاح الفكر حتى لا يتحول الى سياسة ، وتتحول تصورات الانسان الجديدة الى واقع جديد · وقد نشأ الهجوم على الايديولوجية كرد فعل لرواجها فى الخمسينات والستينات فى العالم الغربى احتجاجا من بعض أبنائه على اتجاهات الغرب الاستعمارية ، وعلى اوضاعه الداخلية الفاسدة ·

كانت الايديولوجية خطرا فى تلك الفترة لأنها تنذر بالتغيير لغير مصالح القوى المسيطرة ، وكانت خطرا أيضا لأنها من الناحية المقابلة يمكن أن تخلق الفوضى الاجتماعية ، وتقسم المجتمع الى مئات الجماعات التى تفرقها ايديولوجيات متناقضة ، بما يهدد التجانس الثقافى ، ويؤدى الى التناحر بين أبناء المجتمع الواحد على قضايا متباينة ، الكثير منها فردى ضيق · الهجوم على الايديولوجية اذا قد يمثل ايديولوجية محافظة ، أيديولوجية الأمر الواقع، و « الهندسة الاجتماعية » التى تعالج الأدواء وتقوم بالاصلاح على أسس موضعية : اذا ثار العمال بتدخل التخطيط « العلمى » لاصلاح أحوالهم كعمال ، واذا سخط المثقفون حولت طاقات سخطهم الى ما يفيد فى معالجة المشكلات الداخلية ، أو يعزلون عن طريق التصويت على آرائهم المتطرفة ، واذا قلق الشباب يتم البحث عن أسباب قلقهم من المدخل النفسى الفردى ، ويتم احتواؤهم باشباع حاجاتهم ، ولا ضرورة لتصورات أو أحلام جديدة لمجتمعات انسانية غير تلك القائمة بالفعل (*) ·

وأكثر ما يعنينا فى هذا الهجوم أنه يفصل ما بين العلم والايديولوجية، كأن الايديولوجية مجرد تشويه للعلم · ومن ثم فان على من يبحث فى العلم أن ينصرف الى المعرفة النزيهة المجردة عن الانحياز الاجتماعى · لكن الصحيح أن الايديولوجية ضرورة لحياة الانسان الاجتماعية وللعلم معا ، لنحاول توضيح تلك الضرورة ، بالاقتراب منها بروح غير معادية ·

الايديولوجية : اعادة نظر

الايديولوجية تعبير عن الخيال الاجتماعى

تقدم الايديولوجيا وعيا بالعالم · لا تقدمه لمن يعتنقها ، من يقرؤها أو

من يتلقنها ، لكنه وعى يشارك صاحبه بالضرورة فى صنعه ، والا كان وعيا زائفا ، أو مجرد « دوجما » · ليس الوعى اسما (استاتيكيا) للمعرفة ، وليس صفة يتحلى بها المتعلمون دون الآخرين ، لكنه فى المقام الأول ، فعل قائم على نسق متكامل من المعرفة ، ربما كان الكيف فيه أكثر أهمية من الكم · حقيقة أن المعرفة أول درجات الوعى ، لكن ليست كل معرفة وعيا ، بدأ من ادراكى أن ما أمامى « منضدة » ، الى معرفتى لكل المدارس الفلسفية ، وكل تاريخ الفلسفة · لأنه يمكن أن تتكون لدى القدرة على تصنيف المدارس الفلسفية فى كل مباحث الفلسفة ، دون أن يتعدى هذا شيئا أكثر من معرفتى بنظام من نظم المعرفة · لا تتحول تلك المعرفة الى وعى الا أن تكاملت فى نسق مع معارف أخرى ، ليكون هذا النسق اطارا أنظر من خلاله الى العالم ، واحدد موقفا مع، وضد · مع فكر ضد فكر ، ومع قوى اجتماعية ضد قوى اخرى ، ومع تصور للمستقبل مخالف لغيره من التصورات ·

ويتحدد صدق الوعى بمدى قدرته على ملء الفجوة ما بين التاريخ الخاص للفرد والتاريخ العام للمجتمع ، والبشرية كلها · ان الناس عادة لا يحاولون أن يدركوا أسباب متاعبهم أو يفسروا أسباب متعهم فى ضوء التغيرات التاريخية والتناقضات المؤسسية فى مجتمعاتهم ، لأنهم لا يدركون الترابط والتفاعل بين أنماط حياتهم الخاصة ومسار تاريخ العالم · لا يدرك تلك العلاقات الا من يطلق العنان « للخيال الاجتماعى » (١٣) · ويربط الخيال الاجتماعى ما بين حقائق الحقبة التى يعيشها الفرد وبين ما سبقها من تاريخ، وبين حياته الخاصة · انه حين يتعرض مجتمع لتحولات فى مؤسساته ، كأن يدخل مرحلة التصنيع مثلا ، يصير الفلاح عاملا ، ويصفى الاقطاعى أو يصير رجل أعمال ، وترتفع طبقات وتسقط أخرى ، ويجد البعض فرصا للعمل المربح، ويفلس آخرون أو يعانون البطالة · وفى ضوء تلك التحولات فقط يمكن دراسة نفسيات الأفراد فى احباطاتهم وتطلعاتهم ، وانسجامهم ومبادراتهم · ليس الفرد هنا ظاهرة مفردة ، لكنه جزء من ظواهر عامة · وحين يحاول المحبط أن يفسر احباطه تفسيرا فرديا صرفا ، فانه يقع فى الوعى الزائف · وحين يفسره فى ضوء فترته التاريخية فهو يسير نحو وعى صحيح ، لأنه يحاول أن يقف عند نقطة ارتكاز فى اتخاذ القرار · ان يصوغ قلقه الخاص فى عبارات كلية تشتمل حقائق أكبر من وجوده الفردى · وتقدم الايديولوجية تلك العبارات لتعطيه اجابات عن أسئلة : أين يقف ، وماذا يستطيع أن يفعل فى الحاضر وفى التاريخ

ويتحمل المستقبل كمسئولية · لكن اجابات تلك الأسئلة لا يمكن الوصول اليها مرة واحدة والى الأبد ، لأن كل حقبة تقدم اجاباتها الخاصة ، وكل معتنق للايديولوجية عليه أن يجد اجاباته هو ، لا أن يكتفى بترديد اجابات الآخرين · ولهذا فان الوعى معاناة وليس مجرد معرفة تحصيلية · لأنه عملية ربط بين عناصر كثيرة : بين الخبرة الشخصية والتاريخ ، والهموم الخاصة والمتاعب العامة ، والسياسة وعلم النفس ، والمؤسسات العسكرية والشعور بالوحدة فى قصيدة شعر حديث (١٤) ··

من هنا كانت الايديولوحية دعوة الى المشاركة فى صنع التاريخ ، أيا كان قدر الدور المتاح للفرد فى صنعه ·

الايديولوجية وعى صحيح ووعى زائف :

فى محاولة ملء الفجوة بين الحياة الخاصة والتاريخ قد يتكون الوعى الزائف ، لأن الوعى لا يتكون من فراغ ، وانما يتأسس على ما تتيحه الحقبة من معرفة ، ينتقى من بينها محتواه · وقد تتصيد بعض الايديولوجيات معتنقيها لتجنده كمخلب قط فى يد « التاريخ » ، على أساس أن هناك قوانين تسيره مجاوزة لقدرات الانسان ، أو يقع « للتوبيا » (*) السائدة فى مجتمع ، أو لأيديولوجية جماعة من جماعات الاقلية ، ليقاوم حكم الفرد المستبد بحكم أكثر استبدادا بالانسان وحريته ، أو يستبدل قيم مجتمع اقطاعى يقيم اقطاعية أشد غلوا ·· ، وبهذا تمثل الايديولوجية وعيا زائفا ، أو « دوجما » متحجرة · فكيف نحكم على وعى بانه وعى زائف ، بينما نحكم على وعى آخر بأنه صادق؟ ليس صحيحا أننا فى هذه الحالة نقع فى شرك نسبية الوعى ، أى أن كل وعى يحكم على الآخر بأنه وعى زائف من منظوره هو · لأن الوعى اذا كان يتأسس على المعرفة ، فان للمعرفة طرقا فى اختيار صدقها · هنا نستطيع أن نحكم جزئيا على الايديولوجية من خلال حكمنا على تكوينها المعرفى ، الى أى حد يرتبط كل منهما بالآخر ؟ كيف استطاعت الايديولوجية أن تفيد من معارف الانسان وتضيف اليها الخيال الاجتماعى لتخرجها فى نسق متكامل ؟ نحن لا نستطيع أن نصل الى حكم فى هذا الخصوص بوضعنا كل الايديولوجيات فى سلة واحدة لنقوم بعملية اختزال وتجريد لها ، لكى نستخلص سمات الفكر الأيديولوجى ، وخصائص من يعتنق الايديولوجيا · ذلك تبسيط شديد يحاول

أن يؤثر بطريقة بلاغية فى المتلقى متغافلا عن مئات التفصيلات · فليس فى وسعنا أن نسوى بين الصهيونية والليبرالية ، والنازية والاشتراكية ، وبين ايديولوجيا جماعة (الحشاشين) وأيديولوجيا (العلم والتكنولوجى) · والفرق كامن فى البنية الداخلية لكل ايديولوجيا ، منها ما هو هش قائم فعلا على الخرافة ، ومنها ما هو متماسك قائم على المعرفة العقلانية · والنموذج للايديولوجيات القائمة على الخرافة هو الصهيونية · فهى رغم ارتباطها بتيارات التحديث وحركة التنوير والليبرالية والماركسية وشتى التيارات الحديثة ، الا أنها تعتمد فى صلبها على مجموعة من الأساطير ، ووهم شعب الله المختار · وهى تتسع لتجمع بين الفقراء والأغنياء ، والمتحضرين والمتخلفين وتستخدم كل العقائد المتناقضة حتى تجد قبولا لدى كل أنواع اليهود ، ولتتواءم مع كل الأوضاع السياسية والفكرية والنفسية · كل الأفكار لديها صحيحة من الليبرالية والاشتراكية والفاشية ، والتزمت الدينى والالحاد ، ما دامت مؤيدة للهدف الثابت وهو أسطورة من النيل الى الفرات التى تحاول تجسيدها كحقيقة · فبينما تزعم الصهيونية أنها ايديولوجية عالمية انسانية « ستحب أنت الغريب » ، الا أنها عنصرية متعصبة « ستقتل أحسن الاغيار » ، وليختر كل ما يشاء · وجدت الصهيونية أن الخلاص لن يتحقق لليهود بانتظار المسيح ، وانما بالاشتراك فى دين العمل ، وفى استغلال كل ما يمكن استغلاله (١٥) ، فهى ايديولوجية نفعية الى أقصى حد · صحيح أن الصهيونية ناجحة حتى الآن رغم انطباق كل مساوىء الفكر الايديولوجى عليها · لكن النجاح العملى وحده ليس معيارا ، لأن هناك ظروفا كثيرة فى نشأة اسرائيل وبقائها كما هو معلوم ·

ولا نستطيع أن نوجه نفس التهم الى الليبرالية مثلا كما هو الحال فى الصهيونية · فالليبرالية نسق مترابط من الأفكار اعتمد فى بنيته على أحدث النظريات العلمية المتاحة · ولا يعيبها أن فكرتها الرئيسية تقوم على اعتبار المجتمع جزءا من النظام الكونى ، وان تعتمد فى نشأتها على تصور نيوتن للكون أو غير ذلك من تصورات علمية ، بل تلك ميزة الايديولوجية والا ما كانت فكرا متكاملا · وفكرة اعتبار المجتمع جزءا من النظام الكونى تولد عنها تنظيم المجتمع على نحو أفضل اذ اعتبر القانون فى المجتمع جزءا من الناموس الكونى كله ، اذا اختفى اختفت الحرية وانقلب المجتمع الى فوضى لا يأمن فيها الفرد العنف والضغط من جانب الآخرين · (١٦) · وليست تلك الفكرة اسقاطا

عنصريا على الكون والمجتمع ، وليست كلمات حمـــــاسية مؤثرة كما تهتم الايديولوجية · صحيح أنه يمكن أن نهاجم الليبرالية من منظور اشتراكى مثلا، لكن لا يمكن أن نهاجمها من حيث كونها أسطورة · فهى أيديولوجية شارك فى صياغتها كثير من كبار المفكرين الغربيين من أمثال جون لوك ومونتسكييه وفولتير وآدم سميث وستيوارت مل (١٧) · وتلك الجهود لا يمكن أن تختزل فى بساطة الى تفسير نفسى ، وهو لعبة الأحزاب التى يحاول كل منها أن يكون سندريلا « السياسة » · ولأن الليبرالية تقوم على العلم ، فهى قادرة على أن تتطور مع تطور العلم، على عكس الصهيونية التى لا تستطيع الا أن تلفق وتبرر وتجمع بين الأضداد · لأن شعب الله المختار يجب أن يظل شعب الله المختار · والنصوص الرئيسية جاهزة وموجودة مقدما ، لا يمكن أن تستبدل بنصوص أخرى · قد تصلح الليبرالية لأن تكون وعيا لكثير من شعوب الأرض التى تعانى استبداد السلطة وطغيان الفرد والرأى الواحد · لكن الصهيونية لا تصلح الا للصهاينة وحدهم ·

الايديولوجية تحديد موقف من العالم :

لا تتبادل الايديولوجيات الفكر لكىتجد ارضا مشتركة، وتساعد الواحدة الأخرى من أجل الوصول الى الحقيقة المطلقة · ولكن الايديولوجيا تحديد موقف ، وتحديد خصم ، وتحديد صديق · فالصراع الاجتماعى والانسانى عامة يلعب دوره فى نشأة الايديولوجيات وفى رواجها · ان الناس لم يجتمعوا معا لأنهم يحبون بعضهم البعض حبا غرزيا وحسب ، بل لأن بينهم صراعا أيضا · « الآخر » بالنسبة للفرد ضرورة حيـــاة ، بالاتصال والانفصـــال ، وبالسيطرة وبالخضوع ، وبالسادية والماسوكية · وبالمثل ، لا يمكن استبعاد الصراع من الحياة الاجتماعية وانما يمكن فقط كبته أو تحويل اشكاله · وحالة السلام ما هى الا تغير فى صيغة الصراع ، أو فى موضوعاته ، أو فى أسلوب المتصارعين (١٨) لهذا تتكون المجتمعات بالصراع ، لا لأن المجتمع جزء من الطبيعة التى يحكمها قانون الناب والمخلب والبقاء للاصلح ، ولكن لأن الصراع جزء لا يتجزأ من عملية التطبيع الاجتماعى ذاتها · والدليل ، أنه لا توجـد جماعة منسجمة تمام الانسجام ، لأن الانسجام التام فى الجماعة يعنى خلوها من العمليات والبنى الاجتماعية اللازمة لتكونها واستمرارها · ليس الصراع اذا عاملا اجتماعيا معوقا الا ان زاد عن حدة زيادة مفرطة · والاعتقـــاد

بأن الصراع يهدم ، بينما التعاون يبنى المجتمعات اعتقاد خاطىء ، لأن المجتمعات ليست محصلة لعملية جمع وطرح ، ولكنها تبنى بالسلب والايجاب، وبالحذف والاضافة (١٩) ٠

وتتدخل الايديولوجية تدخلا حاسما فى عملية الصراع . لأنه ما دام فى المجتمع صراع ناجمعن مصالح مادية، فلابد أن توجد دفاعات فكرية متضاربة٠ وتعمل الايديولوجية على حفظ هوية وحدود المجتمعات والجماعات . لأنه كما يحدث للفرد حيث لا تتكون هويته الا من خلال تفاعله مع الآخرين بالقبول والرفض ، تميز الايديولوجيات الجماعات المتصارعة وتعطيها اطارها فى مقابل العالم الاجتماعى المحيط بها ٠ وتعمل العداوات والخصومات المتبادلة على حفظ النظم الاجتماعية فى عملية الحراك ، لأنها تحفظ الحدود بين الجماعات الفرعية فى النظام الاجتماعى الكلى وتمنع اختفاءها ٠ والأيديولوجية تعنى فى حالة تبلورها الانتقال من حالة الانفعال الى الفعل ، ومن الكراهية المعممة غير المتعينة ، الى أهداف محددة للعمل والتغيير (٢٠) ٠ والانسان لا يتحرك أو يفعل لمجرد أنه يعرف ، ولكن من الضرورى لكى يفعل أن « يعتقد » ٠

تطالب الايديولوجيا معتنقيها بحالة من الالتزام، لأن اعتناق الايديولوجيا اختيار درامى ٠ هو ليس اختيارا بين صنف من الطعام وصنف آخر ، لكنه اختيار بين وجود ووجود ، له تبعاته فى المسئولية والتضحية ، والكسب والخسارة ٠ ليست الايديولوجيا استمتاعا بالأفكار ، لكنها تحمل لمعاناة الوعى بدور الانسان فى اللحظة التاريخية التى يعيشها ٠ والقول بأن تلك لغة فخمة يتبناها الفكر الايديولوجى ما هو الا محاولة للتقليل من شأن الانسان وشل قدرته على التغيير وربطه الى واقع جاهز الصنع على أنه الواقع الوحيد الممكن ولا فرار منه ٠ انها دعوة الى التفكير بما يسمى « المصطلحات الاجرائية » فى سياق لا تصلح فيه تلك المصطلحات ٠ وقتل لمفاهيم حضارية قادرة على أن تكون عالما انسانيا رحبا يدفع الانسان الى الفعل ٠ عالم يتكون من كلمات مثل الجهاد ، والشرف ، والكرامة ، والحرية ، وتغيير العالم ، والمجد ٠٠٠ واذا انزاحت تلك الكلمات من عالم الانسان لتحل محلها الأرقام ، أى كلما أصبح الانسان أكثر « عملية » وأكثر « آلية » ، وكلما كان أكثر أنانية ونفعية يدور فى فلك مصلحته الخاصة دون شعور بالمسئولية عن الآخرين ٠ ولا اغتراب أشد حدة من أن يكون الآخرون مجرد أدوات ووسائل نافعة للمصلحة

الخاصة · لا يصلح المفهوم الاجرائي حين نفكر فى الواقع الانسانى الشامل، ولا يجوز التفكير بالكم حين يجب التفكير بالكيف ، والا فقد الانسان قدرته على مجاوزة الواقع ، ومن ثم القدرة على تغييره · ولا يحدد الانسان موقفه من الحياة الا اذا وعى نوع العالم الذى ينحاز اليه · ليست القضية اذا أن يختار الانسان ايديولوجيته ، أو أن ايديولوجيته تختاره · لكن القضية هى أن هناك ايديولوجيين كبار ، وايديولوجيين صغار · الايديولوجى الكبير مفكر كبير بالضرورة ، يحاول اعادة تنظيم العالم وربط عناصره بتوسيع معرفته عنه · والايديولوجى الصغير قد يكون مسلوب الوعى يردد ما يقوله الكبير ، حيث يجد فى الايديولوجية عزاء عن حرماناته ، ومتنفسا لانفعالاته وتعصباته اللاعقلانية ·

الايديولوجية تحديد موقف من العلم :

كما تلبس الأيديولوجية رداء العلم ، يلبس العلم رداء الايديولوجية · وكما نستطيع أن نقوم الايديولوجية من جانبها العلمى نستطيع أن نقوم العلم من جانبه الايديولوجى ، وهذا أمر واضح تماما فى العلوم الاجتماعية ، لأن كل عالم أو باحث يقيم نظرياته وأفكاره على بنى تحتية ايديولوجية · ونختار للتوضيح بعض أمثلة من علم النفس ، أكثر العلوم الاجتماعية تشبيها بالعلوم الطبيعية ، لنتبين ارتباط نظرياته بأيديولوجية معينة ·

كان ستانلى هول يحاول أن يجيب عن الأسئلة الفلسفية المتعلقة بطبيعة الانسان عن طريق علم النفس · فنادى بثقافة الجسد ، لأن الجسد القوى أكثر الأشياء أهمية فى كل مرحلة من مراحل نمو الانسان ، ولأن الأطفال والرجال يفكرون بارادتهم وعواطفهم وأجسادهم أكثر مما يفكرون بعقولهم · ومن ثم ، فان الطفل الذى يفتقد الحيوية لا يستحق أن يلتحق بالتعليم · لأن التعليم لايفعل شيئا فى بعض الأحيان أكثر من مداراة الحقيقة الطبيعية لبعض الناس · والذين يقعون فى أسفل سلم التطور لن يفيدهم التعليم شيئا ، والأفضل للطفل الذى لا يملك الحيوية للعب المتواصل الا يذهب الى المدرسة ، لأن أكثر ما يحتاجه التلميذ هو مقررات فى « البطولة » ليتوحد مع الأبطال ، لا البحث العقلى · وأحسن أنواع التربية هو ما يجعلنا خادمين طائعين ، لأن هذا هو طريق السلام وسنة الطبيعة ، لأننا لو حاولنا جادين المحافظة على ضمير

خاص دون سلطة خارجية ، فاننا سنواجه بصعوبات تصل من الضخامة حدا يجعل غالبيتنا تسارع بوعى وارادة - على نحو أو آخر - لتضع نفسها تحت سيطرة السلطة الخارجية مرة ثانية · حقنا فى الحرية هو حق اختيار السيد· وعن طريق التربية ، وعلم نفس « الجينات » والنظام التربوى الجيد ، والتخطيط المتوافق مع الطبيعة الانسانية ، لا مع مطالب أو مصالح المجتمع ، يمكن أن توجد مملكة « السوبرمان » (٢١) ·

واعتنق فرويد نظرة التطور ليطبقها على الانسان ، وهى تتضمن اعادة الماضى الغريزى للانسان من خلال اللاشعور · ورأى الطبيعة الانسانية تتكون من كائن بدائى ، يتطور من حيوان الى انسان بشكل مختزل فى حياة كل طفل· ليس الماضى ماضى المريض النفسى وحده ، لكنه ماضى الجنس البشرى كله ، بدأ من حيوان يسلك سلوكا فسيولوجيا بدائيا ، الى كائن مفكر يستعمل الرموز· ومن ثم فان الناس ليست مخلوقات طيبة لطيفة تسعى الى أن تكون محبوبة وتدافع عن نفسها فى حالة الهجوم عليها فقط ، بل هم عدوانيون بالغريزة وعدوانيتهم تحتاج الى تبريرات ، وتضع نفسها فى خدمة أغراض يمكن أن تصل اليها بطريقة أكثر لطفا · وحين تسترخى قوى القمع تعبر العدوانية عن نفسها تلقائيا وتكشف عن الوحش القاسى ، وتغدو الانسانية مغتربة عنه · ولا أمل للانسان ، والسعادة الطوباوية لا يمكن تحقيقها ، لأن الخطأ فى النهاية ليس خطأ فى المجتمع ولا فى الفرد ، ولكنه خطأ متضمن فى الطبيعة الانسانية ذاتها ، وهى ثابتة · كل ما يستطيع المرء أن يفعل والحالة هذه ، هو أن يحول تعاسته الهيستيرية الىشعور يوميء بعدم السعادة ، وهذا مكسب كبير، وعبء يجب أن يعتاده كل البشر · والثورات أعمال بلا جدوى ، كل ثورة تبدأ باسم الحرية ، وتنتهى بالضرورة بالضبط والقمع ، لأن تحرير مبدأ اللذة على حساب مبدأ الواقع يؤدى الى حالة «اللاثقافية» · لا سعادة ، حتى بمحاولات الثورة، لأن الحضارة تتبع قوانين الضرورة الاقتصادية . فتسحب قدرا كبيرا من الطاقة الجنسية لتستعملها فى أغراضها الخاصة ، وهذه الطاقة تسحب من الجنس على حساب الاستمتاع ، لأن الانسان المتحضر يقايض المجتمع بجزء من فرصته فى السعادة ، فى مقابل الشعور بالأمن (٢٢) ·

وكان ثورنديك يرجع الفروق الفردية الى الوراثة ، لا الى البيئة · والتعليم عنده يجب ألا يقدم للجماهير ولكن للصفوة الموهوبة فقط ، ومن ثم فان

تقديم التعليم الالزامى لغير القادرين محاولة مقدر لها الفشل · والأذكياء أحسن شخصية وأكثر اكتمالا من الناحية الخلقية وأقوى ارادة من الأغنياء · ومن لهم مستقبل أحسن فى هذا العالم ، هم النظيفون الطيبون من الناس ، لا الدهماء · هكذا تشير معاملات الارتباط عنده ، حيث توجد علاقة ايجابية بين الكسب المادى والذكاء والأخلاق الفاضلة · وبهذا تتساوى الفضيلة مع الثروة، حيث الوراثة فى الأخلاق والذكاء عن الأجداد القريبين حقيقة ، والاختلافات العنصرية أيضا حقيقة وليست وهما · فالتلاميذ البيض ، أكثر امتيازا فى الدراسة لأنهم متميزون فى طبيعتهم الأصيلة ، بالاضافة الى البيئة المواتية التى توجدها تلك الطبيعة الأصيلة · وعلينا أن نخدم أبناء القادرين ليصلوا الى القمة ، وأن نخدم أبناء غير القادرين الأشرار بحرمان « جيناتهم » من البقاء والاستمرار · لا مساواة ، لأن الارتقاء البيولوجى جعل البعض عالى الذكاء ، والآخر قليل الذكاء فى مقياس « الجينات » · والفروق الاجتماعية والاقتصادية انما هى نتاج للفروق فى الذكاء الموروث (٢٣) ·

ونقف عند سكنر وقفة أطول قليلا ، حيث سيطرت سلوكيته على علم النفس التربوى عامة ، بل على معظم البحوث الاجتماعية بحكم الثقل الاقتصادى والثقافى لأمريكا · يرى سكنر الانسان « ماكينة » ويدرسه على هذا الأساس · ولا يدفع عن نفسه تهمة النظر الى الانسان هذه لأنه يرى الانسان مجموعة أفعال منتظمة كما هو الحال فى الماكينة · ويعلن أنه لا يبحث « الطبيعة الانسانية » ككل ، لكنه موجه فى بحثه بأسئلة معينة ، ذات أهداف محددة مؤداها : كيف يمكن أن ينتج الانسان أكبر انتاج ممكن ، فى أقل وقت ممكن ؟ ثم ، كيف يمكن التحكم فى سلوك الانسان ؟ والاجابة هى نظام التعزيز ، والتشريط الاجرائى · لقد ادى نظام التعزيز الى أن تقوم الجماعة بأعمال لا يقوم بها الحمام عادة ، وكما يمكن التحكم فى الحمام والحيوان عامة يمكن أن نتحكم فى الانسان بحيث يقوم بما نطلب منه · فى المصنع مثلا يمكن نضع جدولا للعامل حتى ينتج بصورة أكبر عن طريق التعزيز ، لكن بصورة لا يكون فيها هلاكه تحت تأثير التعزيز · ومثلما هو الحال فى المجتمع الأمريكى يقترح سكنر ان ينقل نظام « اليانصيب » فى المصنع ويكون السحب على الانتاج ، استغلالا لنفسية العامل التى كونتها الثقافة الأمريكية ، والتى تشتهى الثراء السريع بالمغامرة أو المصادفة · وعلى نحو ما يكون فى المصنع تكون المعادلة فى التعليم : ما أحسن انتاج تعليمى ممكن ، فى أقل وقت ممكن،

وبأقل تكلفة ؟ والجواب : التعليم المبرمج · والتعليم المبرمج يقوم على التعزيز، لا العقاب · ان العقاب فى رأيه لا يؤدى الى التعلم ، لكنه يؤدء فقط الى محاولة الهروب من الموقف العقابى باستجابات جديدة ، وتلك الاستجابات يمكن أن تختفى عند اختفاء الموقف العقابى ، لتعود الى الظهور استجابات أسوأ من الاستجابات الأولى · نحن نعيش فى مجتمعات تقوم على القهر ، ويجب أن تخلو المجتمعات من الاكراه ويوجد فيها التعزيز فقط لتنشـــأ الاستجابات السليمة · حتى بالنسبة للدين يجب أن يخلو من الاكراه أو التهديد بالعقاب ليحل محله حب الله أو حب الانسانية : وبهذا يكون التعليم متسقا مع الانتـاج الصناعى ، وكلاهما يتسق مع المجتمع ككل · وفى روايته الشهيرة «والدن ٢» يتصور مجتمعا خاليا من العقاب ، هو يوتوبيا يضحى فيها الانسان بفكرة الكرامة والحرية من أجل السعادة ·

وأفاد سكنر بعلمه الصناعة الأمريكية أكثر مما أفاد التعليم · لأن الصناعة فى رأيه يقوم عليها مسئولون يهمهم أن يزيد الانتاج ويتحسن · بينما لا يوجد مسئولون فى التعليم يهتمون على وجه التحديد بزيادة الانتـــاج التعليمى وتحسنة · وهو يرى أنه قادر على ابتكار ماكينات جديدة للقمـــار تستنزف كل ما فى جيوب المقامرين من أموال ، لكن لا يمكن استخدام التعزيز بالامكانيات نفسها فى التعليم لأن التعزيز فيه قليل بطبيعته · ولو كان أكبر مما هو عليه لأمكن اللعب بخيوط الدمية البشرية كما نشاء (٢٤) ·

أين العلم فى الأمثلة السابقة وأين الايديولوجية ؟ ان الايديولوجية هى القالب الذى يصب فيه العلم ، لأن صانع العلم والايديولوجيا واحد ، وهـــو الانسان بعقلانيته ولا عقلانيته ، ونزاهته وتحيزه ، وتفكيره المنطقى ومغالاطاته المنطقية وانتماءاته وعداءاته الاجتماعية والسياسية · يصعب أن نقول ان مفهوم « الليبيدو » عند فرويد مفهوم محافظ ، أو أن « قانون الأثر » عند ثورنديك قانون رجعى ، أو أن « التعزيز » عند سكنر مفهوم رأسمالى ، تلك تفصيلات معرفية ، لكن حين تتضافر التفصيلات المعرفية فى نسق نستطيع أن نحكم مع وضد من يقف هذا النسق أو ذاك · وقبولنا ورفضنا بدورهما لا يقومان على أسباب علمية صرفة ، وانما على أسباب ايديولوجية أيضا · بعبارة أوضح ، يرتبط العلم الاجتماعى ارتباطا شديدا بالسياسة وما يرتبط بها من أوضاع اقتصادية واجتماعية ، حتى لو بدا بعيدا عن ذلك تماما ·

ولهذا قد نقبل أو نرفض فرويد أو سكنر أو غيره ، ليس لمجرد تفصيلات معرفية ، ولكن لأن لنا نظرية موافقة أو مختلفة مع ما تتضمنه تلك التفصيلات المعرفية عن الكون والانسان والمجتمع · أى النظرة الايديولوجية (*) ·

نخلص من هذا الى أنه ما دام يوجد مجتمع أو حياة اجتماعية فسوف توجد الايديولوجيات وانه لا تختفى ايديولوجية ما الا لتحل محلها ايديولوجية جديدة · فحالة الفراغ الايديولوجى لا وجود لها ، وانما لابد أن تتواجد حالة ملء ايديولوجى ، حتى وان كان بالفكر المعادى للايديولوجية · والاختلاف كله قائم فى نوعية الايديولوجيات الموجـــــودة : من الايديولوجيات البدائية الى الأيديولوجيات المعقدة المتطورة التى تتناسب وتعقد وتطور المجتمعات · ومن أيديولوجيا ت التبرير للاوضاع القائمة ، الى ايديولوجيات التفسير والتغيير للاوضاع القائمة · ومن الأيديولوجيات الضيقة التى تمجد عنصرا أو طائفة من الناس ، الى الايديولوجيات التى تخاطب الانسان بما هو انســـــان · ومن الأيديولوجيات التى تعتمد على الأســـطورة فى بنائها ، الى الأيديولوجيات المجدولة مع العلم ونطلق عليها اسم « نظريات » · فاذا لم يكن ثمة مفر من الأيديولوجية فى الحياة العامة أو فى العلم ، فخير لنا أن نختار ايديولوجياتنا بدلا من أن تختارنا · وان نحدد موقفنا من عالمنا فى وعى ، بدلا من أن ننجرف أمام الأحداث · وليس الهروب من الايديولوجية هروبا من الدخول فى قالب ، ولكنه بالحرى هروب من مواجهة الذات ومن اعلان موقفنا الاجتماعى ، وتحديد أهدافنا العامة والخاصة ، واختيار وسائلنا لتحقيقها · والتحديد ليس تضييقا للفكر والحركة ، ولكنه خلق لامكانات الفكر والحركة بديلا عن التشتت فى كل اتجاه · وبهذه الفرضيات ننظر الى معرفتنا التربوية ·

معرفتنا التربوية والأيديولوجية

لنحاول أن ننظر الى المعرفة التربوية فى مصر من منظور ايديولوجى ، هل نستطيع أن نتبين نسقا معينا واضحا ، هل يســـيطر اتجاه أو مجموعة اتجاهات معينة عليها ؟

نبدأ محاولة الاجـــــابة بالتسليم بأن ثمة عـــلاقة ارتباط وثيقة بين الايديولوجية العامة فى المجتمع ، وبين الايديولوجية الخـــــاصة بالمعرفة ·

الصورة العامة تغذى الصورة الخاصة · وتنعكس عليها ، لكن التعبير يختلف حسب مجال وبنية المعرفة · ومن ناحية الايديولوجية العامة نذكر أن دانيال بل (٢٥) يرى أن أيديولوجيات العالم الثالث على وجه العموم تتميز بمجموعة من الصفات من أهمها : أنها ايديولوجيات مسطحة ، تقتصر على الجانب السياسى ، ويضعها الحكام وهم عسكريون فى العادة ، وترتبط بأهداف نفعية عاجلة مثل : التصنيع أو القومية أو العرقية · ومن ثم تختلف ايديولوجيات العالم الثالث عن الايديولوجيات التى نمت فى الغرب ، من حيث أن أيديولوجيات الغرب نتاج لجهود كبار مفكريه وعلمائه ، وبعضها يصلح لأن يكون ذا صفة عالمية · أما ايديولوجيات العالم الثالث فهى غارقة فى المحلية كنوع من الدفاع عن الذات ، أو متأثرة بايديولوجيات الغرب لكن مع قدر من التشويه ·

وعلى الرغم من أن دانيال بل واحد من أكبر المبشرين بانتهاء الفكر الايديولوجى ، الا أننا لا نرفض اتهاماته لايديولوجيات العالم الثالث على اطلاقها · فالعالم الثالث لم يدخل عصر الايديولوجيات الكبرى الذى كان ثمرة تطور العلم الطبيعى والفلسفة والفكر بوجه عام فى أوربا ، وكانت ايديولوجياته بمثابة مبارزات مسلحة بالمعرفة حول الواقع الاجتماعى والسياسى · وتلك الحقيقة سبب مباشر لضعف البنى المعرفية فى ايديولوجيات العالم الثالث ، وسبب لما يظهر من محاولات الدفاع والتبرير والتوفيق فى ايديولوجياته المحلية الخاصة (*) · واذا انتقلنا من تلك الصورة العامة الى الصورة الخاصة فلن نجد هذا الحكم بعيدا عن الواقع · فربما لا ينكر أحد أننا نعيش فى تيه ايديولوجى عام ، يوجد شتات من ايديولوجيات الغرب ، وفى مقابلها دعوات رافضة من منطلقات متعددة · وتحديد العدو والصديق مسألة نسبية ووقتية متقبلة مع الأحداث · لا ثوابت ، وانما متغيرات دائما · والحلم الاجتماعى العام الذى يتصور ماذا نريد أن نكون كمجتمع لا وجود له · والتيارات السياسية القائمة حاليا تتبلور فى أحزاب معارضة يوم بيوم، بلا منظرين أو فلاسفة أو برامج متعمقة ، تضع الحكم الرسمى فى قائمة الخصوم دون نظرة شاملة متماسكة الاطراف لبدائل جديدة · والرجل العادى فى حالة تشتت يعجز عن الحكم القاطع بالصواب والخطأ ، ويعتنق ايديولوجية « اللاموقف » فى يأس ولا مبالاة الا بأحلامه الخاصة ومصالحه المباشرة السريعة ·

وربما لا نغالى اذا قلنا أن التيه الايديولوجى العام يشكل الى أكبر حد التيه الايديولوجى فى التربية ، الموقف نفسه يتكرر · ونعود الى الصورة العامة للتربية فى العالم الثالث ، فنذكر أن بعض المنظرين (٢٦) يرى أن الجهود البحثية فى التربية فى البلاد النامية تتصف بخمس خصائص : غلبة الطابع السياسى عليها ، وغياب التاريخ الاجتماعى والثقافى الخاص فى التنظير ، والمبالغة فى الاميريقية المجردة ، والسطحية فى اختيار الموضوعات، واغفال الأسس الايديولوجية التى تقوم عليها النماذج ونظريات التى توجه البحث ومحاولات الاصلاح · وبالنظر الى مصر نذكر مرة ثانية أن تلك الخصائص ليست بعيدة عن المعرفة التربوية فيها ، فنحن اذا سألنا : ما الايديولوجية السائدة المميزة التى توجه انتقاءانا للمشكلات ، وتبنينا للنظريات العلمية ، واختيارنا لأساليب البحث المختلفة ، فلن نجد ايديولوجية ، أو مجموعة ايديولوجيات واضحة منذ دخول الفكر التربوى الغربى فى أوائل القرن العشرين · وانما الصفة الغالبة هى سيادة الموقف اللاايديولوجى وان غلبت حينا بعض المدارس الغربية مثل البرجماتية والسلوكية · فى مصر كل النظريات والاتجاهات والمدارس ومناهج وأدوات البحث والتخصصات والمبتكرات والمستحدثات التربوية · وهى جميعا فى حالة تعايش سلمى دون علاقات عداء الا فى حالات قليلة · وهذا الكم كله موجود ، لا بحكم الروح العلمية اليبرالية المتسامحة ، ولكن بحكم أننا نأخذ من الغرب الفكرة ونقيضها مجردة عن سياق الصراع الذى نشأ فيه كلاهما · فتعيش الافكار هنا منزوعة السلاح ، وتعامل على أنها أفكار علمية · ولهذا يسود مفهوم معين للبحث العلمى قوامه أفكار مثل الموضوعية ، والتجرد ، واللاانحياز ، والبعد عن اصدار الاحكام ، والتحديد الاجرائى للمصطلحات ، ودراسة العلاقة بين متغيرين أحدهما مستقل والآخر تابع · وبهذا المفهوم تدرس موضوعات مثل : مشكلات اعارة المدرسين الى البلاد العربية ، والتخطيط التربوى عند أحد المفكرين فى التاريخ الاسلامى ، وتقويم برامج محو الأمية فى أحد المصانع ، وتقويم كتاب مدرسى ، والعلاقة بين التحصيل الدراسى والتغذية ، وتقويم الكفاءة فى احدى مدارس التعليم التجارى · بالاضافة الى دراسات الاستبيان التى يبدو بعضها وكأنه تحقيقات صحفية لأنها لا تقع تحت تخصص علمى مما تعتمد عليه التربية ، هى موضوعات فى التربية وحسب · ولا تتخلف البحوث عن الموضوعات السياسية ، هناك بحوث فى فترة الاشتراكية عن تنمية اتجاهات الادخار لدى الطلاب ، وتحليل اتجاهات القومية العربية فى المقررات ، وكيفية

تحويل الميثاق الى قيم عند التلاميذ · ثم بحوث فى الفترة التى تليها عن الدولة العصرية ، وعن ادخال المستحدثات فى التعليم ، وعن غرس القيم الديمقراطية فى التلاميذ ·

وليس الغرض تقويم بحوث ودراسات التربية فى مصر واصدار حكم عام عليها بالسطحية ومجاراة النغمة السياسية التى تعزفها السلطة ، فهذا حكم جائر ، وانكار للجهود البحثية الممتازة · ولكن الغرض هو تقرير انه لم تخرج كثير من البحوث عن نظرية معرفية (ابستمولوجية) ، ولم ينتج عنها تبلور لنظرية معرفية على غرار ما نعرف من نظريات مثل « الاحياء الثقافى » أو « التطورية » أو « الوظيفية » أو « البنيوية » · لم تنقل النظريات متكاملة من الغرب ، وكل نظرية تتضمن مفاهيم أساسية عن الانسان والكون والمجتمع ومنهج البحث والجوانب التى تستحق أن تبحث · ولم تتبلور اتجاهات نظرية ذات طابع مصرى فى رؤية ودراسة الواقع المصرى · كان الاتجاه السائد - وربما مازال قائما - هو دراسة الواقع بطريقة مباشرة ، بحيث لا يكون للبحث قيمة الا اذا كان امبريقيا · ونشأت الاتجاهات المعادية للتنظير ودراسة الكتب ، لاختلاط معنى التنظير بالكلام الانشائى والعبارات الخطابية · وكان نتيجة ذلك كم من البحوث يتجه الى مشكلات الواقع بطريقة مباشرة لحل مشكلاته ، مسايرة للاتجاه « العصرى » فى البحث ، وخلع عمامة التنظير · واعتبرت دراسة الماجستير والدكتوراه تدريبا على استخدام أدوات البحث ، كأن التنظير لا يحتاج الى تدريب · ولهذا اختلطت الأمور ، واتجهت البحوث الى معالجة الاغراض على أنها الامراض ، واهتمت بالموضوعات المحددة الصغيرة لأنها أكثر مناسبة لاستخدام أدوات البحث · وبدلا من محاولة اتخاذ الواقع ميدانا للتنظير ، واستخدام التنظير لخدمة الواقع فى أبعاده المختلفة ، حدث التعامل مع الواقع المباشر فى صورته الساذجة ·

وربما تأتى الفجوة الاساسية فى التنظير من غياب تاريخ التربية ، وفلسفة التربية فى مصر ، لا كمادة دراسية ، وانما كدراسات توجه أنظارنا لرؤية الواقع ·

فواقعنا الحالى جزء من تاريخنا ، وتاريخنا لحظة جديدة فى واقعنا · ولا يكفى لتفسير واقعنا الحالى أن نلجأ الى مقولات عامة مثل مقولة

المجتمعات النهرية » أو « نمط الانتاج الاسيوى · أو أن نفسر ازماتنا بانهيار الاخلاق ، أو بعلاقة التبعية · وانما نحن فى حاجة الى فهم خصوصية هذا الواقع من خلال التاريخ ، ومن خلال نقد خصوصيتنا التاريخية ، مستبعدين ممالأة الذات بتمجيد كل أيامنا وفعالنا من ناحية ، ومستبعدين الشعور بأننا مستهدفون لمؤامرة دائمة (*) · نحن فى حاجة الى فهم واقعنا كتكوين تاريخى لنحدد أين نقف ، ومع من وضد من ، للافادة من التاريخ وللتحرر من اغلاله فى الوقت ذاته · وعلى سبيل التخصيص نذكر أن تاريخنا التربوى لم يكتب بعد ، الا فى ضوء ممالأة الذات · حقيقة توجد كتب دراسية تسرد التاريخ التربوى فى العالم أو فى منطقتنا ، لكن لم يكتب التاريخ الذى يمكن أن يشكل وعينا التربوى بواقعنا بامتداداته الزمنية المختلفة · يبدو تاريخنا أفقيـــا مسطحا على قطع من « الزمن » ، وليس فى سياق تطور مضطرد ، ان وجد تطور حقيقى مضطرد · ولم نحلل أسباب أفقيته ، ان لم نجد التطور الحقيقى المضطرد · لم نكتب تاريخنا سعيا وراء المعرفة الموجهة باسئلة ايديولوجية · فنحن لا نضع يدنا على العلاقة التفاعلية بين التربية والسياسة سلبا وايجابا ، وبين التربية وتأثير مفكرينا سلبا وايجابا ، وبين التربية والظروف الاقتصادية سلبا وايجابا · لا نعرف مثلا تأثير نظام الحكم فى تاريخنا على انتشار التعليم وانحساره فى العصور المختلفة · ومن الذين نالوا حظا من التعليم ومن الذين حرموا منه ، ولماذا ؟ وما تأثير تصنيف العلوم الى مراتب على توجه العقل وتوجه مناهج التعليم ، وارتباط ذلك بالمجتمع ككل · ثم لا نعرف كيف اعاد التعليم انتاج الثقافة بأصالتها وأمراضها ، وتأثيره فى تكوين العقلية الهامدة الحافظة بدلا من العقلية المبتكرة ، وهو تكوين له جذور تاريخية بالضرورة···

كذلك لم تحدث محاولات كثيرة للوعى بواقعنا فى فلسفة تربوية · فما هو موجود تعريف بفلسفات الغرب تختلف فى طريقة كتابتها · فهى اما تقدم من وجهة نظر معينة مثل البرجماتية ، أو تعرض مجموعة فلســـــفات يترك للقارىء اختيار ما يريد منها ، أو تطوع بعض الفلسفات لتلبيسها على الواقع حتى الرسائل العلمية التى يفترض فيها شىء من الابداع مازالت تدور فى فلك المقارنة بين المثالية والبرجماتية والطبيعية ، أو عرض آراء بستالوتزى وجون لوك التربوية · ونبدو بهذا غير مهتمين بمنطق الأولويات : ماذا نريد وماذا لا نريد ؟ ماذا يستحق جهد البحث وماذا يأتى فى مرتبة ثانوية ؟ لماذا المعرفة بوجه عام ؟

وفى غياب التاريخ الخاص والفلسفة يغدو التعامل مع العلم والبحث العلمى بلا ضوابط · وتنتشر ظاهرة « الباحث المحترف » ونقصد به من يتعامل مع التربية كعلم على أنها كتلة واحدة لا تنفصل ، ليس بمعنى « وحـــدة المعرفة » ، ولكن بمعنى أن التخصص فيها أمر غير مجد ولا لزوم له · ولذلك نجد الباحث الذى يكتب فى خمسة تخصصات أو أكثر : فى التربية المقارنة ، وفى فلسفة التربية ، وفى تاريخ التربية ، وفى اجتماع التربية ، وفى التربية الاسلامية ، عدا الدراسات فى نقاط فرعية أخرى · وهذه الموضوعية تقليد مستمر بدأ مع الرعيل الأول للتربية حين كانوا يكتبون فى كـل التخصصات بحكم الفراغ الذى كان قائما ، وبحكم الحاجة الى تكوين رصيد معرفى لاعداد المعلم والباحث · لكن استمرار تلك الظاهرة لا يعنى الا الاستخفاف بالمعرفة ، ولا ينتج عنها الا التشوه المفاهيمى ، لأن التوسع على هذا النحو لا يأتى الا بحشد المعلومات مترجمة أو منقولة ، ووصل الفقرات كلما أمكن ذلك دون اهتمام بما وراء تلك المعلومات من ايديولوجيات متعارضة · فنجد الرصيد فى النهاية جعبة متناثرة من المعلومات بلا نســق ، وبلا موقف ، المهم هو غزارة الانتاج وتنوعه ·

وعلى الجانب الآخر ، ولكن بصورة أقل ، نجد الباحث «الايديولوجى» الذى يضع جل اهتمامه فى اثبات صحة الرؤية الماركسية أو غيرها فى التربية· ويهاجم كل فكر فيما عدا ما يريد اثباته · صحيح أن الايديولوجية فكر مهاجم لكن للعبة قواعدها الخاصة · فاذا كنا بصدد الهجـــوم الايديولوجى على نظرية ، فمن الضرورى مهاجمتها فى بنيتها من جوانبها المختلفة على أساس البديل الذى نتبناه : من حيث نموذجها العلمى وفروضها الكبرى وتفصيلاتها المعرفية ومنطقها فى البحث · ومن هذا الصراع الايديولوجى ينمو العلم · أما الهجوم الخاطف على النظريات العلمية بأدانتها بالامبريالية واســـتلاب الوعى وما الى ذلك فهو خروج عن قواعد اللعبة ، أشبه بازاحة قطع الخصم من على رقعة الشطرنج للانتصار عليه بلا لعب · وغياب التنظير الخاص بنا لا يتيح لنا الكسب مع الالتزام بقواعد اللعب ، وهى أن نهاجم النظريات على أساس معرفى لا على أساس موقفنا الاجتماعى فقط ·

نعود للتأكيد بأن تلك أحكام نرى أنها تصدق فى صـــــورتها العامة بلا مواربة ، وبلا قسوة على الذات · لكنها ليست صادقة على باحثى التربية

فردا فردا ، ولا يعنى النقد اهدار الجهود الفردية · ولكنها تظل جهودا فردية، وذلك لب المشكلة ·

نأتى الآن الى السؤال الصعب الذى يواجه كل الدراسات النقدية :
ما العمل اذا ؟

هل تنتظر التربية حتى تتبلور ايديولوجية عامة للمجتمع فتكون لهـــا ايديولوجيتها التى تبنى عليها نظرياتها العلمية ؟

وقبل هذا ، هل ننتظر أن نمر بعصر الايديولوجيات كما مرت به أوربا ، وان يسهم العلم الطبيعى فى تشكيل العقل المصرى حتى تتكون لنا ايديولوجية ما ، أو أن ننتظر حتى يظهر لنا الايديولوجيون الكبار ليمهـــدوا الطريق ، ولا أن نتقدم لنلحق فى مجال العلم بالمجتمعات التى سبقتنا ويسير التغير فيها بمعدل أسرع من التغير لدينا مئات المرات · غاية ما نطمح اليه تحديد موقف من العلم قائم على وعى واضح بواقعنا وبالعالم الذى نعيشه ، لأنه لا توجد بداية أخرى · وليس تحديد الموقف بالأمر الصعب فى هذه المرحلة من تاريخنا · فنحن نواجه الايديولوجية الصهيونية ونعرف مخططها الذى لن تحيد عنه ، ولم تنشأ فى المقابل ايديولوجية مضادة ، وحـــــدث تناس لفكرة الصراع الحضارى مع اسرائيل · ونعرف أننا جزء من العالم المقهوم ، ونتصرف وكأننا جزء من العالم القاهر · وندرك أن نقص المعرفة جـــزء أساسى من تخلفنا ، ونتصور مستقبلنا على أساس الثورة المعرفية والتكنولوجية · ونشهد ثرواتنا تستلب فى الداخل والخارج ونعيش فوضى الحراك الاجتماعى ، وتســـتمر بحوثنا تتناول العاب المحاكاة وقضايا الرسوب والتسرب · وليس المطلوب أن نتوقف عن البحث لنتفرغ للايديولوجية ، أو أن نوجه بحوثنا الى التعليم فى اسرائيل وقضايا العالم الثالث ونقل النظريات العلمية من العالم الثالث بدلا من الغرب · ولكن المطلوب أن نقف لنعرف من أين نبدأ والى أين نسير · وأبسط الخطوات هى أن نطرح على أنفسنا أسئلة ايديولوجية لنجيب عنهـــا اجابات علمية فى ضوء واقعنا الذى نعيشه ، بصرف النظر عن مصادر المعرفة التى نعتمد عليها ·

ليس ثمة حل سريع ، أو توصيات بحلول ، وانما نحاول أن ننظر الى

معرفتنا التربوية فى وضع مشكل · ولا يكون ذلك باقتـــراح مجموعة من المشكلات التى تستحق البحث أكثر من غيرها ، أو توجيه الجهود كلهـــا فى سبيل هدف واقعى مثل اصلاح التعليم · ولكن بالتفكير والبحث فى الخطوة التى تسبق ذلك ، وهى بناء المعرفة الموجهة بأسئلة ايديولوجية لتتكون لدينا اطر مفاهيمية متسقة · وذلك بأن نطرح على أنفسنا ـ كمدرســـة مصرية ـ قضايا تحديد موقف فى فترة الوعى بالذات التى تضطرنا الاحداث اليهـــا اضطرارا فى وقتنا الحالى · ولمزيد من الايضاح نقدم عينة من تلك القضايا على النحو التالى :

— المدخل الأساسى لاصلاح التعليم هو ربطه بالانتاج وبسوق العمل· ومن ثم يجب وضع التعليم فى خطة تنمية شاملة لانتاج رأس المال البشرى ·

— المدخل الأساسى لاصلاح التعليم هو تنمية وعى المتعلم وتحريره من عملية التطبيع الاجتماعى بالقوة التى تمارسها المدرسة ، ليكون قادرا على تغيير مجتمعه ، وتنمية ابداعيته ، قابلا للتعلم مدى الحياة ·

— المدخل الأساسى لاصلاح التعليم هو تنمية الاخلاق لأن الانســان كائن روحانى قبل أن يكون كائنا ماديا واذا صلحت الاخلاق صلح المجتمع·

— المدخل الأساسى لاصلاح التعليم هو تحويله الى تعليم ديمقراطى بحيث تتشكل أجيال جديدة قادرة على تأسيس الحياة الديمقراطية فى مصر كأسلوب حياة ، وللتخلص من آفة الاستبداد التى تسيطر على حياتنا عامة ·

— لا يوجد مدخل أساسى لاصـــــلاح التعليم لأن تدهوره ناجم عن أوضاع بنيوية اجتماعية واقتصادية معينة تحتاج الى تغيير · واصلاح التعليم فى تلك الظروف يعنى تكريس تلك الاوضاع واجراء ترقيعات تزيد مشكلاته مستقبلا ·

— يحتاج التعليم الى فلسفة شاملة موجهة ذات أهداف واضـــحة مشتقة من فلسفة المجتمع وتاريخه والمعرفة المتاحة فى عصرنا ·

— لا يحتاج التعليم الى فلسفة شاملة لأن الفلسفة الشاملة لا توجد الا فى المجتمعات الشمولية · ولكن ما يحتاجه هو زيادة كفاءته وفعاليته ببحوث الفعل وتحليل النظم وادخال المستحدثات التربوية ·

— يحتاج التعليم الى فلسفة شاملة موجهة وفى الوقت ذاته يحتاج الى رفع انتاجيته بشتى الطرق والوسائل ·

— يحتاج التعليم الى ثورة عن طريق تغيير المفاهيم المسيطرة عليه مثل مفهوم التدريس والعقاب والتقويم والدافعية والتعلم والمعرفة وطبيعة الانسان ، دون حاجة الى فلسفة موجهة شاملة ·

— يجب تغيير المناهج الدراسية بحيث تكون وظيفة متصلة بحياة التلميذ ·

— يجب الاهتمام بالتركيز على التخصصات العلمية واعطاء قدر أكبر من المعلومات للتلميذ لأن هذا هو الطريق الى تخريج العلماء كما يحدث فى اليابان مثلا ·

— يجب أن يتعلم التلميذ عن طريق بيئته لأنها المعمل الذى ينتج منه العلم والمعرفة والسبيل الى محو اغتراب التلميذ عن عالمه وسيطرته على موارد الثروة ·

— يجب أن يكون التعليم للابتكار وتكوين العقلية الناقدة ، ومن ثم علينا أن نلغى المناهج التى توضع مقدما ·

— يجب تمهين التعليم ليكون انتاجيا لمحاربة الفقر بطريقة عملية بتغيير صيغته من تعليم أكاديمى الى تعليم فنى أو صيغة المدرسة الشاملة أو البولتكنيكية ، أو غيرها من الصيغ العملية ·

— يقضى تمهين التعليم على الثراء العقلى ، والمهم هو تكوين الانسان أولا ، والمثقف الذى يعى عالمه ويغير مجتمعه .

— لا تعارض بين تمهين التعليم وبين التثقيف .

— تفريد التعليم هدف يجب العمل على تحقيقه من أجل أن يحقق الفرد ذاته بأقصى ما يستطيع .

— تفريد التعليم لا يتفق وروح الجماعة التى تحرص عليها ، ويمكن أن يهدد التجانس الثقافى .

— يمكن الجمع بين تفريد التعليم وما يجب أن يتزود به كل فرد من الثقافة الأساسية للمجتمع .

— المعرفة التى تقدم فى المدارس الآن تعكس مصالح جماعات القوة المسيطرة على المجتمع فى انتقائها وتوزيعها .

— التعليم عملية نفسية وصناعية محايدة وله منطقه الخاص فيما يجب وما لا يجب أن يعلم ومناقشة المعرفة من وجهة سياسية اضاعة للوقت بلا طائل .

تلك قضايا ساذجة المظهر ولا تصدمنا لدى قراءتها لأننا نألفها هى وغيرها من مئات القضايا التى تتعلق بالتربية . وهى تبدو كشعارات دائمة الترداد فى الكتابات التربوية . لكنها رغم مظهرها البسيط وألفتنا بها بدايات تحديد موقف ايديولوجى علمى من شأنه أن يؤدى الى انساق فكرية متكاملة معقدة فى التخصصات المختلفة . لأنه بالتداعى المنطقى لابد أن نبحث مئات القضايا المرتبطة بها ، وهذا هو السبيل الوحيد للتخلص من التشوه المفاهيمى . مثلا : لا يمكن الجمع بين اعتناقى لفكرة أن مهمة التعليم تحرير الانسان من عملية التطبيع الاجتماعى بالقوة ، وضرورة وجود فلسفة شاملة للمجتمع وتكثيف المواد الدراسية لتكوين علماء . ولا يمكن أن أرى عيوب التعليم كائنة فى المجتمع الخارجى . وأن اهتم ببحوث الفعل وتحليل النظم .

أو أن اعتنق فلسفة شمولية وأروج لأفكار طوباوية مثل « الفصل المفتوح » ٠ وذلك أن بدا أمامنا مسألة بدهية على الورق الآن ، الا أن ما يحدث فعلا هو تراكم حشد من الأفكار المتناقضة التى لايمكن أن تكون بنى معرفية متسقة فى بعض الدراسات ٠ صحيح أنه يمكن التوفيق بين نظريات متعارضة ، والتوفيق عامل من عوامل نمو العلم ٠ لكن هنـاك فرقا بين التوفيق وبين القفز فوق رؤوس النظريات ٠ التوفيق يحتاج الى تخصص فى فرع علمى معين ، والتعمق فى النظريات التى يمكن أن نوفق بينها ، لكن القفز فـــوق رؤوس النظريات لا يحتاج الا الى النظرة الموضوعية المتعجلة لتلتقى الافكار التى بينها تشابه ظاهرى بلا جذور ٠ لا مفر من الاختيار فى العلم بناء على ايديولوجية ترتبط بموقفنا الاجتماعى ، بعدها فقط يمكن أن يحدث التوفيق ، أو الابتكار ٠ أما الانفتاح على كل الوان المعرفة وتقبلها على أنها مفيـــدة ولا تعارض حقيقى بينها ، فلا ينتج عنه الا تراب ثقافى ، يتطاير مع أول نفخة هواء ، ويصعب جمعه من جديد ٠

★ ★ ★

مصادر البحث

1. Mannheim, K. (1936), Ideology and Utopia : An Introduction to the Sociology of Knowledge, Trans. Writh, L. and Shiles, E, N.Y., A Harvest Book, pp. 61-73.

2. Feuer, L.S. (9175) Ideology and the Ideologist, N.Y., Harper and Row, Publishers, pp. 5, 6.

3. Coser, L. (1956), The Functions of Social Conflict, N.Y., The Free Press p. 116.

4. Karier, C.J. (1967), Man, Society and Education: A History of American Educational Ideas, Illinois, Foresman and Co., p. 96.

5. Kinloch, G.C. (1981), Ideology and Contemporary Sociological Theory, New Jersey, Printice-Hall, Inc., p. 9.

6. Feuer, L.S., Op. cit., pp. 17, 18.

7. Manning, D.J. (1976), Libralism, Lond., Dent & Sons Ltd., pp. 6-14.

(*) كان صغار الشيوعيين يعادون البنتامية ، وكان ماركس ، على عكس انجلز ، يرى بنتام نموذجا فذا للغباء البورجوازى ، لأنه فيلسوف الجميع ، انظر : Feuer, L.S., Op. cit., pp. 25-28.

8. Ibid., pp. 29-31.

9. Bell, D. (1962), The End of Ideology : On the Exhaustion of Political Ideas in the Fifties, N.Y. The Free Press, p. L, 05.

10. Karier, C.J., Op. cit., pp. 264, 265.

11. Manning, D.J., Op. cit., p. 81.

(*) أجريت دراسات كثيرة حول الشخصية النازية وهى أساس هام من أسس الهجوم على الايديولوجية من المدخل السيكولوجى · ومن أول الدراسات التى أجريت فى هذا المضمار دراســـة أجريت عام ١٩٤٤ على مجموعة من الأسرى الالمان ، تبين أن معتنقى النازية من الالمان يتميزون بخصائص نفسية تختلف عن غيرهم من الالمان الذين لا يعتنقون النازية · وجدير بالذكر أن تلك الخصائص هى نفسها ما يتميز به أبناء الكيبوتزات فى اسرائيل · انظر :

Dicks, H.V. (1964) "Personality Traits and National Socialist Ideas" in : DiRenzo, G.J., Personality and Politics, N.Y., Anchor Press pp. 160-225.

(*) يذكر فؤاد زكريا أن عددا من الماركسيين ، فى الاتحاد السوفيتى خاصة ، فى فترة الثلاثينات يرون أن هناك « علوما طبيعية بورجوازية » ، « وعلوما طبيعية بروليتارية » ، وكانت نظرية النسبية لاينشتين تهاجم على أنها نظرية « مثالية » · وفى عهد ســـــتالين كان عالم الاحياء ليســـنكو Lyssenko هو الحاكم بأمره فى ميدانه ، لأنه عرف كيف يوفق بطريقة لا تخلو من التلاعب بين النظريات البيلوجية وبين الفلسفة المادية الديالكتيكية، ولذلك كانت نظرياته مدعمة بسلطة الدولة ، وكان خصومه على المســـتوى العلمى ، خصوما للدولة ، يتعرضون للاضطهاد · وفى المانيا النازية ظلت « فيزياء اينشتين زمنا طويلا محل تجاهل من العلماء الالمان لأنه غادر المانيا هاربا من النظام ، مما أدى الى تقدم الانجليز والأمريكيين عليهم فى هـــذا المجال ، انظر :

فؤاد زكريا (مارس ١٩٧٨) ، التفكير العلمى ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، ص ٣٢٨ ·

(*) يكشف ميلز - وهو واحد من كبار علماء الاجتماع الأمريكيين - حقيقة محاولات القضاء على الفكر الايديولوجى ، فيذكر أن مفهوم « نهاية الايديولوجية » هو من صنع مثقفى حلف شمال الاطلنطى الذين اتخذوا من الثقافة مهنة وحرفة ، وقبلوا دعايات حكوماتهم وروجوا لها حتى تحولوا الى مجموعة من الديماجوجيين المتسترين خلف الاقنعة الاكاديمية ، انظر :

السيد الحسينى (١٩٨٥) نحو نظرية اجتماعية نقدية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ص ١٨٦ وما بعدها ٠

12. Bell, D., Op. cit., p. 401.

13. Mills, C.W. (1973) The Sociological Imagination, N.Y., Oxford Univ. Press, pp. 3, 4.

14. Ibid., pp. 6, 7.

(*) نقصد بالتوبيا الايديولوجية المحافظة السـائدة فى المجتمع والتى تقف ضد التغيير ٠ بينما اليوتوبيا هى التصورات المستقبلية للمجتمع ٠

(١٥) محمد محمود ربيع (١٩٧٩) الايديولوجيات السياسية المعاصرة: قضايا ونماذج ، الكويت ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، ص٢٢٧٠

(١٦) المصدر نفسه ، صص ٢٦٥ ـ ٢٦٨ ٠

وقد وردت عبارة « اقتلوا من الاجانب أفضلهم وهشـموا الرأس بين أحسن الافاعى » فى مناظرة جـرت فى باريس عام ١٢٤٠ بين المرتد عن اليهودية نيقولاس دونين ، ومفسر التلمود الحاخام يحييل ٠ ومازالت تلك الفكرة العنصرية وما شابهها ركيزة الايديولوجية الصهيونية رغم تخفيها وراء أقنعة علمية وانسانية ، انظر :

أسعد رزوق (١٩٧٠) التلمود والصهيونية ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، صص ٥٧ ، ٥٨ ٠

17. Manning, D.J., Op. cit., pp. 14-16.

18. Coser, L., Op. cit., p. 21.

19. Ibid., p. 31.

20. Ibid.

21. Karier, C.J., Op. cit., pp. 154-156.

23. Ibid., pp. 174-176.

24. Evans, R.J. (1968), B. F., Skinner : The Man and His Ideas (A Dialogue), N.Y., E.P. Dutton & Co., Inc., pp. 30-35 and passim.

(*) يدرس هؤلاء كلهم وغيرهم فى أقسام علم النفس فى كلياتنا دون أية اشارة الى الفلسفات أو الايديولوجيات التى تقوم عليها نظرياتهم ، ويعاملون على أنهم علماء وحسب ٠

(*) تجدر الاشارة الى أن السلوكية امتداد للتيار الفلسفى المادى ٠ فكان هوبز هو الذى وضع مصطلح « الماكينة » ليكون « نموذجا » لدراسة الانسان : القلب بمثابة البندول ، والأعصاب اسلاك ، والمفاصل عجلات ٠ ويجزم لوك بأن الانسان فارغ من الداخل والخبرة وحدها هى التى تزوده بالأثاث ٠ وتبنى قادة الثورة الفرنسية هذا الاتجاه ٠ وصاغ دى تراسى ـ الذى وضع مصطلح الايديولوجيا أو علم الافكار ـ نظريته التى تذهب الى أن جميع الافكار تشتق من الشعور بشكل رئيسى ، وتبعه كوندياك فى تحليله للافكار ٠ وكان هذا الاتجاه سلاحا فى يد الطبقة الوسطى فى انجلترا وفى يد الثورة الفرنسية فى صراع العقائد السياسية والدينية التى كان النظام القديم يعتمد عليها فى الحكم وتوزيع القوة ٠

ومن الغريب أن نجد باحثا يلتزم بالسلوكية منهجا ومعرفة فى عملية البحث ، لكنه فى حياته العادية يؤمن بالمعرفة الباطنية والالهام وأهمية العقاب لردع الشر فى الانسان وقدرة الأحلام على التنبؤ ، وهذا يعنى الانفصام ، أو على الأقل تشوه الاطار المفاهيمى لتوزعه بين نسقين متباينين من المعتقدات والأفكار ٠

25. Bell, D., p. 403.

(*) يقدم محمد عابد الجابرى تفسيرا لأهمية العلوم الطبيعية فى الفكر الفلسفى والايديولوجى عامة ، يبدأ من الفلسفة اليونانية ، فيذكر أنها كانت

مدارس فكرية تتمايز بنوع من الموضـــوع العلمى الذى تبنى عليه نسقها الفلسفى · وكان تقدمها مساوقا للتقدم العلمى الحاصل فى فهم الموضـــوع العلمى الواحد ، أو الناتج عن الانتقال من موضوع علمى ما الى موضـــوع علمى أعلى درجة على نفس السلم · شواهد ذلك فى تفسير (ديمقرايطس) الذرى للكون ، وفى مبدأ التغير والصيرورة عند (هيراقيطس) ، ونظـــرة فيثاغورس) الى الكون القائمة على التناسب والتناغم ، واعتباره الوحدة العددية أصل الكون ، وانبهار (أفلاطون) بالرياضيات واشتغاله بها · أكثر من هذا أن منطق (ارسطو) ما هو الا فيزياء اتخذت موضوعا لها الجسم الصلب. ولهذا تعجز مبادؤه فى الهوية والسببية وعدم التناقض عن تفسير ما تقـدمه فيزياء الذرة من حقائق ، فراح العقل يبحث عن منطق جديد · ثم يظهر الارتباط قويا فى العصر الحديث حيث أسس (ديكارت) فلسفته على الرياضـــيات والفيزياء بعد أن كانت من قبل من علوم اللاهوت ، ويستلهم (ليبنتز) فى فلسفة الذرات رياضيات النفاضل والتكامل · ثم يؤسس (كانط) فلسفته النقدية على فيزياء (نيوتن) ومفاهيمه النظرية المطلقة ، ويعود (هيجل) الى مبدأ التغير والصيرورة ليحل العقل محل التاريخ ، والتاريخ محل العقل ، ويطابق بين العقل ونظام الطبيعة من حيث الصيرورة والمصير · ثم تأتى الفلسفات الوضعية المعاصرة لتجعل الفلسفة تابعا للعلم · وحين ازدهرت الفلسفة بازدهار العلم الحديث ، ازدهرت فلسفة التاريخ مع ما حملته من نظريات تعالج التطـــور التاريخى ومصير الانسان ، واطلق العنان للخيال الاجتماعى ليقدم نظرات جديدة الى العالم ·

ويعلل تخلف الفكر العربى بارتباطه مباشرة بالسياسة والعلوم اللغوية والدينية التى ولدت كاملة فى عصر التدوين · وبقى ابن الهيثم وغيره من العلماء خارج بنية العقل العربى لأن أفكارهم بعيدة عن دائرة الصراع السياسى أنظـــر :

محمـــد عابد الجابرى (١٩٨٤) نقد العقل العربى ١ : تكوين العقـــل العربى ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ص ٢٣ وصفحات متفرقة من ٣٣٤ ـ ٣٥٠

26. Paulston, R.G. (1978), Changing Educational Systems : A

Review of Theory and Experience, Washington, D.C., The World Bank, p. 17.

(*) يذهب أحد الباحثين الى أن هناك اتجاها لرؤية تاريخنا فى ضوء المؤامرة ، حيث يتآمر الأعداء على تبيانهم لتقويض الحضارة العربية · وهذا التفسير يرجع فى رأيه الى التعصب القومى الذى يجعل من العرب قومية متميزة بشكل استثنائى وأصحاب رسالة أخلاقية تمدينية ، مما يجعل رؤية التاريخ تسير فى اتجاه واحد ، وهو أن العرب أصحاب حق دائما ، وما يقع لهم من أحداث ناتج عن تدبير خبيث ، بينما يكذب الواقع تلك التفسيرات · انظـــر :

خلدون حسن النقيب (١٩٨٤) « العقلية التآمرية عند العرب » فى : مجلة العلوم الاجتماعية ، العدد الرابع ، المجلد الثانى عشر ، الكويت ، جامعـــة الكويت ، ص ص ١٧١ ـ ١٨٣ ·